

طرة على هامش الصحافة

تريد ان تصدر امرا عاليا او خبرا هاما تعمد الى صحف تكتب فيها ما تريد وتلصق بعضها على الجدران وتوزع بعضها على الباعة والمارين فيعم ما فيها بهذه الوسطة سائر الطبقات وكانت هذه الجرائد تسمى بالحوادث اليومية الرومانية وتتضمن اخبارا رسمية عامة غير اننا لم نقف على اول من ابتكرها من الملوك ولا اول من ارتأها من الساسة ولا الزمان الذي انقضت فيه وهوى فيه نجمها وسقط بيد انه يظهر ان امرها تنوسي ومحى من لوحة الوجود الى ان نهضت اوربا نهضتها الحديثة واتجهت افكارها وميولها الى كل عمل مفيد وكثرت ضرورياتها وحاجياتها والتحم الفرد من كل امة بمجموعها ثم مجموع كل امة بمجموع الاخرى وتبدلت المصالح فيما بينها فرأت فئة من متنوري الافكار اذذاك تبعا لهذه النهضة وتبعها لهذا الالتحام والاشتباك ان يشترك الفرد والمجموع في علم ما هو ضروري او حاجي للحياة الراهنة من الشئون الهامة والاخبار المفيدة العامة مما يحدو الجماعة والفرد على السير في طريق التقدم والرقى والعروج بهم في معارج الكمال وينبه الافكار ويوقظ الهمم ويبعث النفوس على الاخذ بصالحها وصالح امتها وجيرانها بل وصالح العالم اجمع فلم يروا بدا من تقليد دولة الرومان فيما كانت عليه من طريق النشر والبلاغ فصارت تصدر غالب الامم منها من وقت لآخر اهم اخبارها وشئونها وكان ابتداء ذلك حوالي القرن الخامس عشر المسيحي وابتداء

خدمة للمصالح العام واستنهاضا لهمم حقول كتاب العصر لعلمهم يحذون حذونا ويقومون بمثل ما قننا به من نشر الوية العام وبث الفضيلة والحث على السير في طريق الفلاح والسبق في مضمار النجاح وعلى طرح التنايد والتكاسل والتعالي عن الواجب والتغافل رأيت من الواجب أن احرر من وقت لآخر في غير ما موضوع كلمات على صفحات هذه الجريدة (مجلة المغرب) كلما دعيتي القريحة ورأيت مناسبة لذلك وان كنت لست من فرسان هذا الميدان ولا ممن يشار اليهم فيه بينان اذ من المعلوم بين بني قومي وجلدي ان الكتابة ليست حرفتي .

ولما كانت هذه الجريدة باكورة اصلاح جديد ظهر في تاريخ المغرب وكانت في انبثاق نور فجرها رأيت من المناسب أن اتحف القراء واحديثهم بشيء يناسب موضوع هذا الفن وهو تاريخ نشأته وسقطته ونهضته الى ان حالقه الصديق المواني وصالحه ثم صالحه العدو المتجافي ليعلم القراء ان هذا الفن ليس وليد يوم وليلة ولا اتقادت له الآراء وخضعت له الرقاب بحكم الاتفاق والصدفة وانما هو نتيجة جهاد ابطال طال ازمته واحقابا حتى رأى الناس قولهم حقا ورأيهم صوابا ما خصا جل ذلك من دائرتي المعارف للشيخ فريد وجدي المصري والمعلم بطرس البستاني .

الامم الاورباوية الحاضرة ترجع باصل هذه الجرائد الى دولة الرومان اذ يذكرون ان دولة الرومان لما كانت

الذي بعده وكان من اول من سارع من الامم الى هذا الامر العظيم في تاريخ حياة البشرية فرنسا فانها اول ما صدرت من ذلك جريدة ميركور دوفرانس سنة ١٦٠٥ ثم جريدة الغازيت سنة ١٦١٣.

وهنا اذكر اوليات الجرائد لدى كثير من الامم الراقية فاما انكلترا فاول تاريخ نعلمه لجرائدها سنة ١٦٥٧ اذ في ذلك التاريخ اصدرت جريدة عنيت بالاعلانات واخبار السفر البحري ثم تلتها جريدة تسمى بيشمرماركوري سنة ١٦٧٥. وان كان الذي يظهر من نفس من كتب في هذا الموضوع انها كانت لها جرائد قبل ذلك واما ايطاليا فاقدم جرائدها غازت البندقية التي انشئت في القرن السادس عشر قال المعلم بطرس في دائرة معارفه وقد حفظت نسخة منها طبعت سنة ١٥٥٠ في متحف انكلترا واما جرمانيا فاول جريدة انشئت فيها سنة ١٤٩٤ واما اصبانيا فاول جريدة فيها جريدة ادياريودي مادريد انشئت اواسط القرن الثامن عشر واما المجر فاول جرائدها نشرت عام ١٧٢١ واما تركيا فاول جريدة نشرت فيها سنة ١٧٩٥ ولاكن كانت باللسان الفرنسي واما روسيا فاول جريدة فيها الجريدة التي انشأها القيصر بطرس الاكبر في موسكو سنة ١٧٠٣ واما اسوج فاقدم جرائدها نشرت سنة ١٦٢٣ واما نرويج فاقدم جرائدها سنة ١٧٦٣ واما الدانمارك فاقدم جرائدها سنة ١٧٤٩ لاكن كانت باللسان الجرمانى واقدم جريدة وجدت باسية كانت بالصين بيد الحكومة واقدم جريدة وجدت بالهند بينغالة سنة ١٧٩٥ واما اماريكا فاول جريدة انشئت فيها ببوسطن سنة ١٦٩٠.

غير ان هذه الجرائد لم يكن لها من المواد والضبط والنظام والنفوذ والسيطرة على الرأي العام ما للجرائد الحالية قال الشيخ فريد وجدي في دائرته وقبل ان تصل الجرائد لهذه المكانة اجتازت ادوار الطفولية الاولى فن وريقات صغيرة يتناقلها الواحد عن الآخر بغير اهتمام لا تحتوي الا على اقوال تافهة الى صحف دورية فيها شيء من النظام والفائدة الى جرائد كبرى ذات عدة صحف شاملة للسياسة والاخبار العامة والخاصة والشئون الاقتصادية والمسائل الاجتماعية وغير ذلك مما يهتم به الجمهور ويرتاح للاطلاع عليه. وانما اكتسبت الجرائد هذه الروح وتلك المقومات خلال القرن التاسع عشر كما سيأتي بيد انه لا ينكر انه كان لها في قرونها الاولى ضلع جيد وحظ وافر في تهذيب الامم وايقاظ الافكار والنهوض بالحالة العلمية والادبية والاجتماعية والاقتصادية نهوضا يناسب ابتداء نهضات الامم وقيامها عن بكرة ايها.

فهذا ما يتعلق بنشأة الجرائد بغير اللسان العربي واما باللسان العربي فلم نر من ذكر لها اوليات قبل القرن التاسع عشر المسيحي وغاية ما وقفنا عليه ما في دائرة وجدي نقلا عن جريدة المؤيد التي كانت تصدر بالقاهرة ناقله عن مجلة العالم الاسلامي الفرنسي اذ قالت كان الحجر الاساسي للصحافة الاسلامية هو الذي القاه ساكن الجنان محمد علي باشا بانشاء جريدة رسمية لحكومته سنة ١٨٢٨ ميلادية وكان علماء القاهرة الشرعيون لا يزالون يعترضون على استعمال حبر المطابع بانها تتركب من مواد تنافي الطهارة ولاكن اعتراضهم هذا لم يمنع من صدور العدد الاول من جريدة الونائع المصرية الرسمية ومن توالي صدور الاعداد التالية الى الآن.

اومأنا فيما سبق الى ما كانت عليه الجرائد في اولياتها من الضعف مادياً وادبياً ولا يستغرب القارئ هذا الائمة مع ما يشاهده اليوم من قوة الجرائد وسلطانها وانحياز جماهير كل امة من اعلى طبقة الى ادناها اليها حتى انك لا تجد ملكاً ولا رئيس جمهورية ولا وزيراً ولا مديراً ولا رئيس ولاية او قسم ولا فلاحاً ولا تاجراً ولا صانعاً الا وله اشتراك في واحدة او عدد كل على قدر نسبته وحيثيته بل لا تجد شخصاً ذا حيثية مهمة في امته ولا حزباً من الاحزاب ولا شركة من الشركات ذات البال الا وله جريدة تعضده وتنشر آراءه وافكاره وتقويها وتدفع الشبه عنها والا فلا تقوم لها قائمه في الوسط الذي هو فيه فان سنة النشوء والارتقاء قضت بان يكون للكائنات اوليات ومبادي ثم عروج في معارج الكمال والرقى الى باوغ الغايات ومنتهى النهايات سنة الله التي قد خلت في عبادته ولن تجد لسنة الله تحويلاً كالقمر يبدو هلالاً ثم يصير يتزايد الى ان يكمل بدره ويتم نوره وكالنبات يبدو بقدر ما يدركه البصر ثم لا يزال يتزايد الى ان يبلغ قواه ويدرك اقصى مداه بل وفي انفسكم افلا تبصرون الم يكن اصل استعمارنا لهذا الكوكب الارضي ذكراً وانثى ثم لم ينزل بذر هذا الاصل ينمو وينتشر على وجه البسيطة الى ان استفحل عمرانه وكمل تقصانه الم يكن اصل كل فرد منا نقطة من منى تمنى ثم كان علقه الى آخر اطواره ونهاية ادواره. الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير. ثم ان الفضل كل الفضل في حفظ الجرائد في وجودها على ضعفها في مبادئها وقلة موادها ومواردها ومصادرها وضعف الثقة بها بل وكثرة الحواجز والعوارض

المنازعة في بقائها راجع لفئة قليلة من اهل الاصلاح اذ كانوا على الضد من الرأي العام يرون نتائج الجرائد عن بعد ويلاسون حقائق ما يحبوه الدهر لها من القوة والسلطان وامتلاك ناصية الرأي العام لس الاجسام للاجسام لا ادراك الاحلام صور الاشياء في عالم الخيال والاهام. فكانوا يرون فيها من الفائدة والصالح العام ماشاهده اهل هذا العصر فتأبروا على العمل بمجد في احيائها وهجروا كل ما يستطاب ويلذ في الذب عنها والدود عن حياضها الى ان قوي ساعدها وكثر رائدها واقلت عليها الامم اقبال الضياء على الماء والجياح على الطعام واستولت على وظيفتها الطبيعية المنتظرة لها.

بيد انه لما استفحل امرها وانتشرت في اقطار الارض انتشار الشمس على الارضاء وعمت ضواحيها عموم النبات على وجه الخضراء وخاف اهل الحل والعقد من كل امة ان تطير شرارة من جمر لظاها فتحرق العالم وتجعله حصيداً قيدوها بقيود واوضاع تناسب حال امهم من انخفاضهم وارتقائهم ولولا هذه القيود والاضاع لاستحال صلاحها الى فساد وحكمتها الى ضلال وعناد والواحد بالشخص له جهتان بل جهات.

وحيث قلنا ان الجرائد انتشرت في العالم انتشار الشمس على الارضاء فهناك نموذجاً من ذلك الانتشار قال الشيخ فريد اصبحت اليوم الجرائد حاجة من حاجات الامم لاعتبارات كثيرة ولذلك اخذت حظاً من الانتشار لم يكن يحلم ببعضه مؤسسوها الاولون انفسهم فقد دل الاحصاء ان في العالم كله سبعين الف جريدة يومية يبلغ مجموع ما ينتشر من نسخها في السنة عشرة آلاف مليون وثلاثمائة

وخمسة وثلاثين مليوناً عدد ثمنها كلها يقرب من الف مليون (اي مليارين) واربعائة وثمانين مليوناً من الفرنك ففرنسا جريدة تسمى (لوبتي جورنال) تطبع في كل يوم ستة ملايين نسخة وهي الجريدة المحبوبة من العمال والفلاحين وجميع اخبارها تلغرافية وقيمة الاعلان الصغير فيها جنيهاً عن المرة الواحدة ويلى هذه الجريدة في الانتشار جريدة المانان فانها تصدر يومياً نحو تسعمائة الف نسخة ولا يقل عدد جرائد فرنسا بين يومية واسبوعية وغيرها عن ستة آلاف وخمسمائة جريدة وفي انجلترا التيمس تصدر نحو مليون نسخة في اليوم ويوازيه عدد عديد من الجرائد كالدايلي تلغراف والدايلي تيوز والدايلي غرافيك والدايلي مايل ومانشستر جورديان وغيرها وفي اماركا تعطى اهمية كبرى للجرائد فان لجريدة النيورك هيرالد ادارة مؤلفة من ستة وعشرين طبقة تكلفت ملايين عديدة من الريالات ثم قال بعد ذلك بكلام كثير وما اشرف عام ١٩٠٤ على الزوال حتى بلغت الصحف العربية في القطر المصري مائة وسبع عشرة صحيفة ثم قال بعد بكثير ايضاً كانت اهمية الحركة الصحافية عالمياً واجتماعياً في وسط القرن التاسع عشر ممثلة بخمسين جريدة النصف منها كان يصدر في البلاد الهندية فبعد خمس وعشرين سنة اي في سنة ١٨٧٥ بلغ عدد الصحف الاسلامية خارج البلاد الهندية مائة صحيفة ولاكن الحركة الصحافية صارت فيما بعد حيثة فانه لم تمل شمس القرن التاسع عشر للافول حتى بلغ عدد الصحف الاسلامية عدا المجلات العلمية والادبية والفقهية والصناعية مائة وخمسين جريدة بين يومية واسبوعية يقرأها المسلمون في مشارق الارض ومغاربها ولاكن هذا العدد الذي بلغت اليه الصحف

في سنة ١٩٠٠ قد تجاوز ثلاثة اضعافه في مدة عشرة اعوام حيث يوجد الآن اربعائة صحيفة سياسية على الاقل تعبر عن الرأي العام الاسلامي على ان هذا العدد لايزال قليلاً بالنسبة للشعوب الاسلامية وهي عديدة متوزعة على بلاد مترامية الاطراف الى اقصى مدى ولذا تدل بوادر الحركة على ان عددها لا بد ان يبلغ الى الف في زمن قصير والى اكثر منه بعده ومن الحقائق المشاهدة انه مع مضي السنوات وتوالي الشهور تدنو الامم الاسلامية في القرن العشرين شيئاً فشيئاً من الاوان الذي تعمل فيه بمقتضى المبادي التي تضعها العقول المفكرة في صحف قد اختلفت انواعها وتعددت نزعاتها باختلاف المذنبات الاسلامية ولاكن تضمها في دائرة واحدة كلمة المجموع الاسلامي.

هذا واني لارجو من صميم الفؤاد لهذه المجلة تقدماً سريعاً وسيراً حثيثاً في عالم الصحافة وفي سبيل نهضة المغرب الاقصى العلمية والادبية والاجتماعية والاقتصادية بنشر مبادئ العلم الصحيح وبث الدعاية اليه نشرًا وبثًا يناسبان روح النهضة العصرية واعتقد اعتقاداً جازماً راسخاً ان هذا ليس شعوري ورجائي وحدي وانما هو رجاء وشعور الامة المغربية كافة بحق الله الرجاء.

ابوبكر بن الطاهر زنيبر

تنبيه — نلاحظ فيما نقله الكاتب الفاضل عن غيره مبالغة واضحة في شأن ما تخرجه جريدة (البوتي جورنال) الفرنسية من الاعداد، كما ان مراتب بعض الجرائد ونزعاتها المذكورة هنا قد تنيرت منذ التاريخ الذي كتب فيه وجدي دائرة المعارف. (قلم التحرير)